وللحج مقاصد ..

لو نجتهد لتلبيتها!!

محمد عدنان سالم

المحتوى

في مدرسة الحج المتفردة

لم يكن هلال ذي الحجة من عام ١٤١٩هـــ قد أهلَّ بعدُ، عندما وصلتُ المدينة المنورة، وكنتُ قد آثرت أن أبدأ بها رحلتي إلى الحج، أستأنس بها، وأتزود من روحانيتها، وأنهل مـــن جلالهـــا وجمالهـــا، وأستذكر من تاريخها، وأستنطق من جبالها وسهولها؛ ما يعينني على خوض غمـــار (دورة الحـــج) الـــتي أزمعتُ الانخراط فيها، والتفرغ لها هذا العام. و(دورة الحج) – كما يحلو لي أن أسميها، وكما بدت لي من خلال تأملاتي الهادئة في مسجد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام– دورة تدريبية صارمة، ذات برامج تثقيفية وتربوية تطبيقية مكثفة، تنظمها كل عام مدرسة بيت الله الحرام الذي رفع قواعده أبـــو الأنبيـــاء إبراهيم وابنه إسماعيل، ثم دعوا الله أن يتقبل منهما، وأن يبعث في ذريتهما رسولاً منهم يعلمهم الكتـــاب والحكمة ويزكيهم، فكان ذلك البيتُ أول بيت وضع للناس {} [آل عمران: ٣/٩٦-٩٧] .

والمَيْدان الذي تقام فيه أنشطة هذه الدورة هو الوادي الذي أسكن فيه إبراهيم من ذريته مبتهلاً إلى الله {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ *} [إبراهيم: ١٤/٣٧] ، فتقبل الله دعاءه، قائلاً له: {} [الحج: ٢٢/٢٧-٢٨] ..

هكذا كان دعاء إبراهيم أكثر الأدعية الإنسانية بركة، وأطولها عمراً، وأبقاها أثراً، فما تزال أفئـــدة الناس تهوي إلى البيت الحرام، ووفودُهم تتكاثر عاماً بعد عام حتى ضاق بهم الوادي ذرعاً، وألجأ إدارات الحجّ إلى التشدد في طلبات الالتحاق بدوراته السنوية، للحد من تكرارها، وإفساح المجال لحجاج جدد، لم يسبق لهم أداؤها..

ذلك أن اتباع (دورة الحج) إلزامي، فهو فريضة على كل مسلم مستطيع {وَلِلَّهِ عَلَى النَّـــاسِ حِـــجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [آل عمران: ٣/٩٧] ؛ فريضة تسقط عن المسلم إذا أداها مرةً في العمر، ولا يُقبل فيها البدل إلا لعذر شرعي.. وإنما كانت كذلك لما تنطوي عليه من معان سامية ودروس بالغة، لا يمكن تبليغها إلا بالرحلة إليها، ولما تتضمنه من شعائر لا بد من ممارستها، فهي رحلة العمر التي يتوِّج بها المسلم وعيه الاجتماعي من خلال عبادات تتدرج به من صلاة الجماعة في مسجد الحـــي إلى صـــلاة الجمعة في المسجد الجامع في المدينة، يجتمع فيها المسلم مع إخوانه يوادهم، إلى صيام وزكاة يشاركهم بهما جوعهم وعطشهم ويتحسس آلامهم ويعينهم على قضاء حوائجهم، إلى حجٍّ يخرج به بعيداً عـــن أهلـــه ومجتمعه الصغير،إلى مجتمع عالمي كبير، يجتمع فيه المسلمون على صعيد واحد، ليستيقنوا وحدة أصـــلهم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم "كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على

أسود إلا بالتقوى ". وليتعارفوا على اختلاف شعوبهم وقبائلهم {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: ١٣/٤٩] .

وحين يعود المسلم من رحلة الحج إلى بلده، فإن المجتمع يمنحه شهادة تقديرية عظيمة، ويضفي عليه لقب (حاج) في احتفال كبير تضاء له الأنوار وتنصب الزينات وتقدم الهدايا، وهو درجة أخلاقية تختلف عن الدرجات العلمية، فهي ترتب عليه في المجتمع من الواجبات أكثر مما تمنحه من الحقوق، فقد أصبح حاجاً لا يليق به أن يكذب أو يغش أو يخلف الوعد أو ينقض العهد أو يأتي المنكر أو يسيء إلى أحد أو يُرى حيث نهاه الله أن يكون..

ظلت هذه المعاني السامية للحج تتدفق على خاطري، كلما اعتكفت في مسجد الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم، وكنت قد اتخذت لي فيه مكاناً قبالة الروضة الشريفة أبكر له قبل الأذان كي لا يفوتني.. حتى قطع علي تأملاتي يوماً شاب قدم نفسه لي بلغة عربية تعروها لكنة أعجمية، على أنه بوسني يدرس في الجامعة الأردنية، وقد جاء ضمن بعثتها إلى الحج، فعرفته بنفسي، ورأيتها فرصة أثري بها تأملاتي، وأضم إليها انطباعات شاب مسلم ينتمي إلى بيئة أخرى غير بيئتي، فبادرته بسؤال عن انطباعاته في بداية رحلته إلى الحج، فحدثني عن إعجابه بتوسعة الحرم وعظمة البنيان ووفرة الخدمات.

ثم أردف قائلاً: لكن هذا كله ليس بالذي يبهرني فأنا أرى نظائره في كل بلد متحضر.. إنما جئت لأشاهد أين كان الرسول الأعظم يسكن، وكيف كان يعيش، وكيف كان يبلغ الرسالة، ويهدي النفوس، ويشيد حضارة الإسلام، فأنا أشعر أني فسيلة من غرسه، ونبتة من بذره، وشعاع من نوره،جئت أبحث عن جذوري في أعماق الزمان والمكان، عن أصولي التي كلما أوغلت في أعماق التاريخ، امتدت فروعها لتملأ جنبات الأرض، وتفرعت أغصانها لتطاول السماء، متحدية كل الصعوبات والعوائق..

تهفو نفسي إلى غار حراء لتصغي إلى نداء {اقْرَأْ} [العلق: ١/٩٦] يهبط به أمين الوحي جبريل ليلقي به بنبرة صارخة حازمة في أذن الرسول الأمي الكريم، يكررها الأمين ثلاثاً تتزايد شدتها وتتسارع وتيرتها مصحوبةً بضمة شديدة تبلغ منه الجهد- كما ورد في الحديث- كمن يريد أن يوقظ أجيال الإنسانية القادمة على التوالي حتى قيام الساعة، في شخص هذا الإنسان العظيم.

تهفو نفسي إلى رؤية غار جبل ثور الذي ضم الرسول الكريم وأبا بكر الصديق مهاجريْن إلى المدينة {ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠/٩] يُغشي أبصار قريش، وهي تقف على باب الغار، ولو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآهما..

أتوق لرؤية ساحات المعارك الظافرة التي خاضها الرسول في سبيل إرساء أسس العقيدة في بدر وأحد والخندق والحديبية وخيبر..

أريد أن أقرأ السيرة العطرة على الأرض..

كنت أنظر إلى الشاب البوسني يتحدث بحرقة، وكنت في الوقت ذاته أجتر ذكريات حجـــي الأول قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وكنت يومها في مثل سنه وانفعالاته المستعرة، لم ترُق لي الزيارات الســـاذجة التي كان ينظمها أدلاء جهلاء، يقفون على أبواب الحرم، يتصيدون الحجاج، مستغلين غربـــة بلادهـــم ولساهم، ليقلّوهم إلى أماكن لا تنطق، ويحدثوهم بما لا طائل وراءه مقابل دريهمات.

حدثته عن بعض مشاعري آنذاك، أشعرته بموافقتي التامة على انطباعاته، حدثته عن المدينة المنـــورة التي زرتها من قبلُ، وسكنت حواريها وأزقتها، وشربت لبن منائح الجيران من أهلها يصبحوننا به من غير مقابل؛ قِرىً للضيف ووفاءً بحق الجوار، وكنت أخفف الوطء على أرض المدينة؛ شعوراً غامراً أحسه في أعماقي بأن أقدام الرسول الكريم وأصحابه قد وطئتها، وأنها شهدت مجالسهم، وأنصتت إلى محاوراتهم مع النبي المصطفى، ومجادلتهم المنافقين والمرجفين والكفرة المعاندين، ورصدَت غدر اليهود ونقضهم العهود، وامتزجت بدماء المؤمنين الذائدين عن حياض الدين، في حومة المعارك التي خاضـــوها مـــع المشـــركين، وسجلت وجفات قلوب المؤمنين، وتثبيت النبي لهم، يحفر معهم الخندق يوم تداعت الأحزاب على المدينة لاستئصال شأفة الإسلام، فإذا به يذهب بهم بعيداً بعيداً- وهم في أشد حالات الضيق- يقـــول كلمـــا انقدح شرر من معوله وهو يهوي به على صخرة:" أعطيت مفاتح الشام، أعطيت مفاتح فارس..".

لم أشأ أن أوئسه أو أصدمه بواقع مرير، يشير إلى أن حالة التخلف وضعف الفعالية التي تعاني منها الأمة الإسلامية، تحول دون تحقيق تغييرات ثقافية واجتماعية كبيرة، بالسرعة ذاتها التي يمكن بها تحقيـــق إنجازات عمرانية ومادية، فللتغيير الثقافي شروط دقيقة، نفسية واجتماعية يجب توفيرها أولاً، قبل الدخول في عملية التغيير.. اكتفيت بأن نقلت له انطباعاً عدتُ به إلى أصدقائي وأهلي من حجي الأول، يتلخص في أني لاحظت في رحلتي البون الشاسع بين عظمة النظام والمنهج الإسلامي، وعجز المسلمين – إلى حد الكلالة- عن تطبيقه.

ثم نادى المؤذن للصلاة فغاص رفيقي الشاب البوسني في زحام الصـــفوف المتراصـــة، وغصـــت في أعماقي وذكرياتي وهمومي، وقد أوشكَت أيام المدينة الساكنة الهادئة الممتعة على الانتهاء، وبدأ الاستعداد لمكة بشعائرها ومشاعرها المتتابعة، التي لا تتيح لك فرصة لأي استرخاء قد يكون سبباً في ضياع عملك كله.

* * *

التجردُ من (الأنا)؛ من الشخصية والخصوصية والانتماء العائلي، والـــدرجات العلميـــة والمراتـــب الوظيفية؛ أول إجراءات الانخراط في (دورة الحج): فوثائق سفر الحج تؤخذ من الحاج، وتستبدل بها أرقام

تكتب على سوار بلاستيكي، يضعه الحاج في يده، يتم التعامل معه على أساسه، إلى أن ينـــهي دورتـــه ويسترد جوازه.. بذلك يتحول الحاج إلى رقم يُستدل به عليه، وعليه أن ينسى اسمه ومراتبه كلها.

والتجردُ من اللباس والرياش ومستلزمات الأناقة ثاني الإجراءات، وهو (الإحرام)، فعلى الحـــاج أن يخلع كل مخيط فيودعه في حقائبه، ويستبدل به إزاراً ورداءً أبيضين ونعلاً بسيطاً يتوحد بذلك مع ســـائر إخوانه الحجاج، من كل حدب وصوب وجنس ولون ولسان، فلا فوارق هنا، ولا امتيازات، ولن تميز في الحجيج أميراً من فقير، وسيداً من حقير؛ الكل بين يدي الله، يجأر إليه بدعاء واحد؛ كلهم يطلب المغفرة، ويرجو رحمة ربه، ويعلن عبوديته وخضوعه إليه.

هكذا، يتجرد الحاج من متاع الحياة الدنيا وزينتها وكل أسباب التفاخر والتفاوت، فيصبح مؤهلاً لا تباع الدورة التي تأتي أعمالها متلاحقة، وبرامجها مكثفة، يأخذ بعضها برقاب بعض، ويدعم بعضها بعضاً، لتأكيد الوحدة الإنسانية وترسيخ المبادئ السامية التي أرست قواعدها مدرسة الأنبياء، في منهجية موحدة منذ تأسيسها على يد أبي الأنبياء إبراهيم، حتى خاتم الأنبياء سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .

مناسكُ الحج جميعها تؤكد للحاج وحدة الرسالات السماوية؛ السعيُ بين الصفا والمروة، والطواف بالبيت العتيق، واستلام الحجر الأسود، ومقامُ إبراهيم، وحِجر إسماعيل، وعرفة، ومزدلفة، ومنى، وجمـــعُ الحصى، ورمي الجمار، وعيد الأضحى الذي يمثل احتفال التخرج لدفعة جديدة مـــن الحجـــاج حملـــة الرسالة.. كل أولئك يُذكره بأنبياء الله ورسالاتهم، لا يفرق بين أحد منهم بدءاً بأبيهم إبراهيم وانتـــهاء بخاتمهم محمد بن عبد الله الذي جمعت رسالته الخاتمة الرسالات كلها، وتوحدت بها الأديان كلها.

لا أعرف أمة في الدنيا،ولا ديانة، ولا مذهباً، اجتمع لها من الرموز الفكريـــة العميقـــة والمبـــادئ الإنسانية الشاملة، على صعيد واحد وفي مدرسة واحدة، خلال فترة قصيرة واحدة، مثل الـــذي يجتمـــع للمسلمين في موسم الحج.

لا أعرف موسماً متجدداً أبقى في تاريخ البشرية وأكثر قدرة على الاستمرار والتجدد والتطور والنماء والعطاء والشمول الإنساني كموسم الحج..

مَن مِن الأمم مجَّد الأمومة، كما مجَّدها الإسلام في السعي بين الصفا والمروة، مخلداً ذكرى لوْبَةِ هاجر بينهما بحثاً عن قطرة ماءٍ لرضيعها إسماعيل، فانبجست لأم إسماعيل (زمزم) نبعاً غزيراً لا ينضب، يســـقي الملايين من الحجاج، وممن ينتظر أوْبة الحجاج بها في أصقاع العالم؟!

أيٌّ غير الإسلام آخى بين جميع أنبياء الله، وعلق إيمان المرء على إيمانه بهم جميعاً {لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٣/٨٤] ، وجسد ذلك في مناسك الحج، يبدأ الحاج طوافه مـــن

الحجر الأسود، مستلماً إياه أو مشيراً إليه، وينهيه بركعتين خلف مقام إبراهيم، ماراً في كل طوفة بحجـــر إسماعيل؟!

أيٌّ من الحضارات وحَّد الإنسانية، وألغى الفوارق بين البشر، مثلما يفعل الإسلام في الحج؛ يستقبل الناسَ من كل فج عميق، يجمعهم في صعيد واحد بلباس واحد على كلمة سواء واحدة؛ يجأرون بها على الله خالقهم بنبرة ولغة واحدة (لبيك اللهم لبيك).؟!

أيٌّ منها يملك مثل هذا المشهد الرائع تبثه الفضائيات في الحج وفي سائر الأيام؛ يلتف فيه المســـلمون حول الكعبة، ينتظمون في دوائر تتسع وتنداح حتى تعم الكرة الأرضية كلها، تتفتح أوراقهـــا وقوفـــاً، وتغمض ركوعاً وسجوداً، ثم تتناثر لتتبرعم وتتفتح من جديد، تفعل ذلك خمس مرات في اليـــوم، يخيـــل للمرء أن صفوفها المتباعدة قد استقامت وما هي إلا منحنيات، تحنو على مركز الدائرة مكـــة، ويشـــتد حنوها فيها، حتى تتقابل صفوف المصلين محيطة بالكعبة إحاطة السوار بالمعصم؟!

ألا تستحق مكةُ أن تكون سرة الأرض؟! وأن تكون الكعبةُ مركز الكون؟! إنني واثق إنهما لكذلك، وقد بدأ مصطلح مكة (المركز) يستخدم عالمياً، مبشراً بمستقبل مشرق لهذا الدين.

أيُّ الثقافات أقامت نصباً للشيطان، رمز الشر والفساد وبثّ الفرقة وإثارة الشحناء والبغضاء بـــين الناس، وجَمَعت الناس في يوم مشهود كيوم الحج لرجمه، إعلاناً لبراءتهم منه، وعـــزمهم علـــى اليقظـــة لأحابيله؟!

أيّ الأمم تملك مثل ما تملكه أمتي من قيم وشعائر، ورموز، ومدارس، وتطبيقات يومية، وتدريبات سلوكية، وتعليم مستمر، وتزكية دائمة؛ تصون الإنسان من الانحراف؛ تذكره إذا نسي وتعينه إذا ذكر؟!

أفيليق بأمتي أن تفرِّط بهذه الثروة التي وهبها الله وائتمنها عليها، رسالةً تؤديها كل يوم، ويوم الحج الأكبر على وجه الخصوص؟!

الحج ارتحال خارج الأسوار

ألح علي – وأنا أتأهب لأداء فريضة الحج – سؤال غريب: لماذا الحج؟! ما أهدافه؟ ما مقاصده؟ ما أبعاده؟ ما حصيلته؟ ماذا بعد الحج؟! ما معايـــير النجاح فيه؟

الحج ذروة اختبارات الإيمان

وأول ما تبادر لذهني من الأجوبة: إنه فريضة تعبدنا الله تعالى بها، ليبلوَ صدق إيماننا به، المتمثـــلِ في طاعتنا له، وإذعاننا لأمره، مهما كلفنا هذا الإذعان من مشقة قد تثقل على بعض النفوس... والنفـــوس عموماً جبلت على إيثار الراحة، والتردد في قبول التكاليف، ما لم يدفعها لقبولها دافع قوي يستمد قوتـــه من إيمانها وقناعتها الذاتية، وهذا الإيمان يتفاوت زيادة ونقصاً، وقوة وضعفاً،وصدقاً ونفاقـــاً، بتفـــاوت

الأفراد وأحوالهم ودوافعهم، حتى إن المؤمن نفسه ليعلو إيمانه حيناً ويهبط حيناً، وتعتريه آفـات الريـاء والنفاق أحياناً، مما حفز بعض المؤمنين إلى أن يدعو إخوانه للتعاون على رفع مستوى إيمانهم "هيا بنا نؤمن ساعة".

وأن ينبه الله تعالى المؤمنين إلى تعهد إيمانهم بالرعاية المستمرة {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا} [النسـاء: ١٣٦/٤] ، وأن يحلل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الظاهرة تحليلاً نفسياً عميقاً بقوله: «إن لكـل عمل شِرّة[(٤)]، ولكل شِرّة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد أفلَح» [رواه ابن حبان عن ابن عمر] .

ومن عظيم فضل الله تعالى على الناس؛ استيعابُه لهم جميعاً؛ فكلهم عياله، وإدراجُ المـؤمنين علـى اختلاف طبقاتهم في عداد أصفيائه: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَـالِمٌ لِنَفْسِـهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ *} [فـاطر: ٣٢/٣٥] ، فلـم يكتف سبحانه باصطفاء السابقين بالخيرات، بل ضم إليهم المقتصدين بالعبادات، وحتى المقصرين ظـالمي أنفسهم بارتكاب المعاصي طمعاً بعفوه ومغفرته، جعلهم من هؤلاء المصطفَيْن من عباده.

وفي هذا الاختبار الإيماني الهادف إلى تحديد مستوى إيمانهم {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الملـك: ٢/٦٧] تدرَّج بهم في التكاليف ومشقاتها على النفوس: بدءاً من مخالفة المألوف من التعبد لغير الله بالنطق بالشهادتين، والالتزام بالصلاة كتاباً موقوتاً خمس مرات في اليوم، ثم الامتناع عن الطعام نهاراً شـهراً في العام، والخروج عن بعض المال، مرة كل عام، وهما الشهوتان العزيزتان على الإنسان {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ *} [العاديات: ٨/١٠٠] ، ثم يأتي الحج مرة في العمر، ليجمع كل هذه المشقات جميعاً: خـروج على المألوف وإخلاص للمعبود، وصبر على الجوع والعطش، وبذل للمال، وترك للأوطـان والأولاد.. ليكون أعلى الامتحانات، وليس آخرها، فلا يزال المؤمن في اختبار حتى يلاقي وجه ربه، يبتهل إليه على الدوام سائلاً إياه المنّ عليه بحسن الختام.

الإنسان هو المنتفع من تجاربه التعبدية

إلى هنا يبدو هذا البعد الروحي التعبدي للعبادات كلها علاقة ثنائية بين العبد وربه، تثير في الـنفس أسئلة جديدة: مَن مِن طرفي العلاقة المستفيد من هذه العبادات: الله أم الإنسان؟ ويأتي الجـواب الإلهـي حاسماً على الفور{} [الذاريات: ٥٦/٥١-٥٨] فالناس هم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميـد، وفي الحج بالذات، فإنه حتى التقوى التي هي حصة الله تعالى من إذعان العباد لأمره بالنحر، فهي لفائدتهم {} [الحج: ٣٦/٢٢-٣٧] فهذا الأكل وإطعام القانع والمعتر بعض من منافع الحج التي حددها الله تعالى مـن

أهدافه ({لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ *} [الحج: ٢٨/٢٢] .

هكذا يتبين أن العبادات كلها إنما شرعها الله تعالى لمنفعة الإنسان، وأن المستفيد منها في طرفي العلاقة بين الخالق والمخلوق هو الإنسان.

ولكن أي إنسان هذا المستفيد؟ أهو الإنسان الفرد؟ أم الإنسان الجماعة والمجتمع؟!

ولربما كان علينا هنا أن نتساءل عن خطاب التكليف الرباني أكان موجهاً للإنسان الفرد، أم للإنسان في الجماعة؟! وعن طبيعة المسؤولية عن الأمانة التي تصدى الإنسان لحملها، أهي مسؤولية فردية أم جماعية؟

الحج؛ من البعد الفردي إلى البعد الجماعي

فلنفترض أن خطاب التكليف بالحج {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ} [الحج: ٢٧/٢٢] موجه للفرد والجماعة معاً،إذ الجماعة لا تتحقق إلا بانضمام الأفراد بعضهم إلى بعض، وتقاطرهم من كل فج عميق لشهود الموعد المحدد لهم في الزمان والمكان، فما المنافع التي يجنيها الحاج فرداً، والحجاج جماعةً ومؤتمراً، والأمة الإسلامية الموفِدة لهم راعية لمؤتمرهم، والإنسانية من ورائهم باحثة لديهم عن سبل خلاصها وسعادتها، وطرق سموها وارتقائها؟!

وربما يروق للبعض أن يرى – عن سوء نية – في إخراج الحج من دائرة الفرد إلى دائرة الجماعة تجنياً وتزيداً وتحميلاً للنصوص أكثر مما تحتمل.. فما الحج في نظره غير طقوس دينية يؤديها على نحو جماعي أفراد اعتنقوا الإسلام ديناً، طلباً لنجاتهم الشخصية في الآخرة {} [عبس: ٣٤/٨٠-٣٧] .

وربما يروق للبعض أن يرى – عن حسن نية – في الخروج بالحج عن دائرته الفردية، إفراغاً لهذا النسك العظيم من هدفه التعبدي الخالص، فإنما هو عبادة فرضها الله تعالى على كل مسلم مستطيع، تسمو بها نفسه وتزكو روحه من خلال تأملاته الذاتية، وإخلاصه العبادة لخالقه وتفرغه له متخلياً عن جميع الشواغل من أهل ومال وولد ومعاملات وعلاقات دنيوية.

وليس يعنينا لحن القول من سيء النية بشيء، فالكل يعلم أن الإسلام ليس كالبوذية أو الكونفوشيوسية أو الهندوكية، وأنه لم يفرض على المسلم طقوساً مفرغة من معانيها، ولم يستهدف مجرد تعذيب النفس، إنما استهدف تهذيبها وترويضها لكي تخرج عن أنانيتها، وتندمجَ في الجماعة، تحسُّ بأحاسيسها،وتألم لآلامها،وتعملُ لرفعتها وعزتها، فلن يكتمل إيمان المسلم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وحتى يكون لأخيه كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وتنتفي صفة الإيمان عن المسلم الذي لا يأمن جاره

بوائقه، والذي يكذب ويشهد الزور، ومن مشى في حاجة أخيه كان الله في حاجته، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره.

إنما الذي يعنينا المسلم – حسن النية – الذي يخاف على عبادته أن تحبط إن هو خرج بها عن دائرته الشخصية الذاتية، فلهذا المسلم المتبتل المتجه بوجهه إلى الله، المخلص عبادته لله أقول: لا تبتئس يا أخي!!

فهل أنت، حين تعتزم أداء فريضة الحج، إلا وريقة من وردة مترامية الأطراف ترنو إلى المركز تحنـــو عليه لترتشف من رحيقه ما تعود به إلى مواطنها حين تعود فتنتشر وتنتثر؟!

وهل أنت، حين تُحْرِمُ، متجرداً من ثيابك وسائر خصوصياتك ومراتبك، إلا رقم في تعداد الحجيج يباهي به رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمم يوم القيامة؟!

وهل أنت، حين تزج بنفسك في طاحونة الطواف حول الكعبة، إلا حبة قمح تندمج مع أخواتهـــا، يتدافعن ويتمازجن في سبع طوفات، تَدِقُّ وتَدِقُّ حتى تتلاشى ذرات، تندلق من فتحة الحجر الأسود عند الخط الذي يمثل بوابة البدء والختام، تخرج مروَّضة مستساغة معطاءة مؤثِرة غير مستأثرة؟!

وهل أنت حين تلقي بنفسك في غمار السعي بين الصفا والمروة، إلا قطرة ماء في نهرٍ ما زال يجري من دون انقطاع منذ بدأته هاجر تبحث عن ماء يطفئ ظمأ رضيعها،وسيظل يجري إلى قيام الساعة؛ يبطئ حيناً ويسرع حيناً، لكن قطراته حاشا أن تجفَّ، وعلى ظهر الأرض إنسان يصغي إلى أذان إبراهيم؟!

وهل أنت في الحج، إزاء إخوانك الحجاج، إلا حبة رمل في بيداء عرفة، تجـــأرون إلى الله – علـــى اختلاف ألسنتكم – بصوت واحد ولحن واحد: لبيك اللهم لبيك.

هل تستطيع أن تنأى بنفسك في هذه البيداء إلا بمقدار ما تناجي ربك، تسأله العافية لك ولمن يلوذ بك؟!

لست وحدك في الحج، بل أنت عضو في جماعة، وجزء من فريق، تعبـــدون الله مـــثنى وفـــرادى.. تجتمعون على العبادة، ثم يخلو كل منكم إلى نفسه ليرى أثر العبادة فيها، ويسأل الله تعالى القبول لها، وأن يكتبها له في ميزان حسناته، فلا يضرب بها وجهه يوم الحساب، إذا شابتها شائبة نفاق أو رياء.

المسؤولية في الدنيا جماعية وفي الآخرة فردية

ولئن كانت المسؤولية في الآخرة فردية، فإنها في الدنيا جماعية.

في الآخرة: {وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا *} [مريم: ١٩/٩٥] .

{} [الإسراء: ١٧/١٣-١٤] .

ولن يقبل الله تعالى من الإنسان يومها تقليده للآباء:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ *} [البقرة: ٢/١٧٠] ولن يقبل الله تعالى من الإنسان يومها اعتذاره باتباع السادة والكبراء: {} [الأحزاب: ٣٣/٦٧-٦٨] .

ذلك أن الإنسان عندما قبل حمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وتصدى هو لحملها، ثقة منه بقدرته على تمييز الخير من الشر والحق من الباطل بإعمال ما وهبه الخالق من نعمة العقل المزود بوسائط المعرفة من سمع وبصر، وبفؤاد قادر على التحليل والتركيب والمحاكمة، فكان مسؤولاً عن استخدامها وإعمالها ومحاسباً على إهمالها وتعطيلها: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *} [الإسراء: ١٧/٣٦] {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ *} [الملك: ٦٧/١٠] .

أما في الحياة الدنيا فإن مسؤولية الإنسان جماعية.

تقطف الجماعة كلها ثمرات أدائها والالتزام بها: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [الأعراف: ٧/٩٦] .

{} [نوح: ٧١/١٠-١٢] .

ولا بد أن يكون في هذه القرى بعض المفسدين الذين سينعمون بما أفاء الله على الجماعة الصالحة من خير.

وقد تكتوي الجماعة كلها بلظى نيران فساد بعض أفرادها:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ *} [الفجر: ٨٩/٦] .

{وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ *} [الأنبياء: ٢١/١١] .

{} [الدخان: ٤٤/٢٥-٢٨] ومن المؤكد أن الظلم لم يكن عاماً في أهل القرى المهلَكة، ولا بد أن يكون فيهم بعض الصالحين، لكن الفتنة ستعصف بالجميع {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَآصَّةً} [الأنفال: ٨/٢٥] .

وقد أوضح لنا الرسول صلى الله عليه وسلم مسؤولية هؤلاء الذين حاق بهم العقاب من دون أن يرتكبوا الذنب الموجب له مباشرة فقال فيما رواه أبو داود عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» [رياض الصالحين – الحديث ١٩٧– دار الفكر] .

وما مثل السفينة الرائع الذي ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوضح لنا المسؤولية الجماعية في الدنيا ببعيد: وهو ما رواه البخاري عن النعمان بن بشير من قول الرسول الله صلى الله عليه وسلم :

«مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً و لم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونجوْا جميعاً» [رياض الصالحين -الحديث١٨٧- دار الفكر] .

الخطاب القرآني وروح الجماعة

قد يأتي الخطاب القرآني بصيغة المفرد حين تكون له خصوصية، فيكون نداءً لنبي بعينه أو شخص بذاته، وقد يأتي بهذه الصيغة المفردة، وهو يتوخى استغراق الجنس: يا أيها الإنسان! يا أيتها النفس المطمئنة!، لكنه في الغالب يستخدم في الخطاب صيغة الجمع، يتوجه بها إلى جماعة؛ نداءً، أو أمراً، أو نهياً، أو إخباراً..

فيخاطب المؤمنين وأولي الألباب وأهلَ الكتاب والكافرين والمنافقين والأمةَ والأممَ والشعوبَ والقبائلَ ومعشرَ الجن والإنس والناسَ أجمعين، يتكرر لفظ الناس في الخطاب القرآني ٢٤١ مرة توكيداً لعمومه.

إن روح الجماعة، والعملَ الإنساني المشترك واضحان في خطاب التكليف القرآني بصورة جلية:
{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ} [الحجرات: ١١/٤٩] .
{يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات: ١٣/٤٩]
.

وهما يؤكدان مسؤولية المسلم الجماعية في الحياة الدنيا، التي يمثل الحج أعلى مستوياتها، إذ تتدرج العبادات بالمسلم درجات تبدأ بمجتمعه الصغير في أسرته، وتتصاعد به صلاةَ جماعة في مسجد الحي خمس مرات في اليوم، وصلاةَ جمعة في المسجد الجامع مرة كل أسبوع يتلقى فيها توعية المنبر ودرسه الأسبوعي، وصوماً جماعياً شهراً في كل سنة، تنضبط فيه مواعيد المجتمع بأسره على إيقاع واحد، يتحلقون فيه على موائد الطعام، فلا تمتد يد واحد منهم إليه قبل ثانية واحدة من أذان المغرب، ولا بعد ثانية واحدة من أذان الفجر. ثم حجاً إلى البيت الحرام مرة في العمر يتوج به المسلم إحساسه بالجماعة ومسؤوليته عنها.

الفردي والجماعي بعدان متلازمان

ليس في الإسلام عبادة تقتصر على البعد الفردي للإنسان يؤديها بمعزل عن الجماعة والمجتمع، فإلى جانب ما يحققه المسلم إثر كل عبادة يقوم بها من رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه في الآخرة، يقف المجتمع ليتلقى نصيبه الوافر منها، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصيام يكسر حدة الشهوة والميل إلى

إيذاء الآخرين، والزكاة ضمان اجتماعي فريد، والحج مؤتمر يفترض أن يعالج مشكلات المسلمين ويرسم لهم طريق عزتهم وكرامتهم.

وما يقتطعه كل من الفرد والمجتمع من ثمرات العمل في الدنيا – متى كان خالصاً لوجه الله – هو الثواب والمنفعة العاجلة للإنسان من دون أن ينقص ذلك من ثوابه في الآخرة شيئاً.

فالمنفعة الدنيوية هي القسط الأول الذي يتلقاه الإنسان، فرداً وجماعة، لقاء عمله الذي أخلص فيه النية لله، لتقوم به عمارة الأرض وتزكو به حياة الإنسان، وهي هدف رئيسي من أهداف التشريع والتكليف {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: ٢٤/٨] فلا رهبانية ولازهادة في الإسلام، إنما هو التوسط والاعتدال والموازنة الدقيقة بين الغاية الكبرى التي تربط المسلم بهدف أخروي بعيد يوفر له طمأنينته النفسية، وبين أهدافه الدنيوية القريبة التي هي الميدان التطبيقي لمثُله وقيمه {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ *} [القصص: ٧٧/٢٨] .

الشخصية الإنسانية المتوازنة

هذا التوازن العجيب بين الدنيوي والأخروي، بين الفردي والجماعي، هو ما يميز شخصية المسلم، ويبني فيه النفس المطمئنة الراضية المرضية: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير – وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن – إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له" [رواه مسلم عن صهيب عن الرسول صلى الله عليه وسلم – الحديث ٢٧ رياض الصالحين –دار الفكر] .

فما أدركه من المنفعة في الدنيا كان خيراً ساقه الله إليه، وما فاته فيها كان خيراً ادخره الله له سيدركه في الآخرة، فهو المنتفع دائماً عاجلاً أو آجلاً.

وأي إخلال في هذا التوازن يؤدي إلى تعطيل المنهج الرباني عن العمل في بناء النفس الإنسانية واستقرار الحياة.

إن التركيز على البعد الفردي – وهو كما رأينا بعد أخروي محض – غالباً ما يسوِّغ للحاج مزاحمة الآخرين للفوز بنصيبه وإنجاز مناسكه على الوجه الأكمل الذي ينشده، غير مبالٍ بما يسببه لإخوانه من أذى التدافع والتسابق والاستئثار، ضارباً عرض الحائط بكل قيم التسامح والإيثار والتعاون، تلك القيم التي هي في الحج أشد طلباً وإلحاحاً.

وغالباً ما يكون صارفاً للحاج عن هموم المسلمين، وما يعانونه من ضعف وجهل وتخلف وكلالة وعجز، وما يحيق بهم جراء ذلك من ذل وهوان على الناس.. ينشد ثواب الآخرة لنفسه، ذاهلاً عن كل ما يدور حوله، كمن يتصور نفسه في يوم الحشر قبل أن يقوم الحشر.

وما ذلك من أهداف الحج التي رسمها الله تعالى بشيء: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ} [الحج: ٢٢/٢٨] .

وما ذلك من حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء، وهي حجته الأولى والأخيرة (حجة الوداع)، التي خاطب فيها من على جبل الرحمة الإنسانيةَ كلها؛ حاضرها وغائبها وأجيالها القادمة، فلم يدع شيئاً من مشكلاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلا رسم الخطوط العريضة لمعالجته وتقويمه وترشيده.

وما على المسلم إلا أن يتعلم من حجة الرسول صلى الله عليه وسلم هذه، كيف يمكن أن ينتفع من الحج فرداً، وكيف يمكن أن ينتفع منه المسلمون والإنسانية كلها جماعة..أن يتعلم كيف يعمل مع الجماعة وهو فرد، كيف يحقق مصالح الجماعة، ولا ينسى مصالحه الخاصة، كيف يندمج مع الفريق من دون أن يفقد ذاتيته وخصائصه، {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ *} [سبأ: ٣٤/٤٦] .

مكة المكرمة

عاصمة ثقافية للعالم الإسلامي

انعقدت في مكة المكرمة في الفترة بين (٣-٥) من ذي الحجة ١٤٢٣هـ الموافق (٤-٦) شباط (فبراير)٢٠٠٣م الندوة الإسلامية السنوية الكبرى لموسم حج عام ١٤٢٣هـ التي تنظمها سنوياً وزارة الحج في المملكة العربية السعودية، وكان موضوعها لهذا العام (مكة المكرمة العاصمة الثقافية للعالم الإسلامي) بناءً على اختيارها عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٤م من قبل وزراء ثقافة دول العالم الإسلامي وقد دعي إلى هذه الندوة لفيف من مفكري العالم الإسلامي يمثل معظم الأطياف الفكرية والجنسيات والألوان والألسن، وتركزت موضوعات الندوة حول رحلات عدد من العلماء والمثقفين إلى الحج وما تركته من آثار في فكرهم ومناهجهم، وعن دروس الحج وأثره في الحياة الاجتماعية والثقافية للعالم الإسلامي، وعن التبادل والتواصل الثقافي بين مكة وبلدان العالم الإسلامي عبر العصور، وتخللت الندوة مداخلات غنية كان أبرزها مداخلات نسائية؛ لفتت الأنظار إلى ما تتمتع به المرأة المسلمة عامة والسعودية بوجه خاص من وعي فكري ورغبة في المشاركة الفعالة في المنتديات الثقافية.

وكان المؤلف بين المدعوين، فقدم للندوة ورقته التالية بعنوان لمكة كلمة لو تقولها.

لمكة كلمة لو تقولها !!!

يوم الحج الأكبر

رسالةً يحملها الحجاج لأقوامهم إذا رجعوا إليهم

وزفرةً يبثونها من صعيد عرفة إلى سائر البشر

مقترح مقدم إلى كل معني

باستعادة الحج حكمته ومغزاه

لمكة كلمة لو تقولها !!!

ومَنْ أجدر من مكة أن تكون لها هذه الكلمة كل عام، وهي التي تحتضن أعظم وأقدم وأخلد مؤتمر سنوي عالمي، يتوافد إليه الناس من كل جنس وعرق ولون؛رجالاً وعلى كل ضامر، يأتين من كل فج عميق، منذ أذَّن فيهم بالحج إليها أبو الأنبياء إبراهيم {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ} [الحج: ٢٢/٢٨] ؟!

ومَنْ غير مكة تستحق أن تكون عاصمة للثقافة وهي التي تضم أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين، فيه آيات بينات،جعله الله حراماً ليكون للناس قياماً، وليكون لهم مثابة وأمنـــاً، يقيمـــون فيـــه مؤتمرهم السنويَّ،مخبتين إلى الله، متّحدين تحت لواء أصلهم الإنساني الواحد، متبرئين من كل ما يمكن أن يفرق بينهم من لون أو عرق أو لسان أو مال أو لباس، أو رياش؟!

ومَنْ غير المسلم يملك خطاباً إنسانياً شاملاً، مرتكزاً إلى قيم ربانيةٍ تهفو إليه الفِطر الإنسانية السليمة، لا يصدر عن شخصٍ مهما علت مكانته الدينية أو السياسية أو الاجتماعية، ولا عن هيئة أو حـــزب أو سلطة مهما كانت صفتها محلية أو إقليمية أو دولية، إنما يصدر عن مؤتمر شعبي عالمي عريـــق راســـخ لا يخضعُ لشيء من مؤثرات الزمان والمكان؟!

حلم ما يزال يراودني منذ حجي الأول في ستينات القرن الماضي، وسؤال عريض يلح عليّ كلما حلَّ موسم للحج وارتحل:

لِمَ لا يحتل نبأ الحج الأكبر في وسائل الإعلام العالمية مساحة أكبر من خبر أداء أي طائفة منعزلة في العالم لطقوسها الدينية التقليدية؟!

وهل يحتشد مليونا مسلم كل عام في مكة، يهرعون إليها من كل أنحاء الأرض يتكبدون لها المشاق والمتاعب والنفقات، لمجرد أداء طقوس تخصهم، بمعزل عن القضايا الإنسانية الكبرى؟!

أهكذا كان حج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خطب الناس فحرم دماءهم وأموالهم، ووضع عنهم ربا الجاهلية، وأوصاهم بالنساء خيراً، فتناولت خطبته أخطر جوانب حياتهم التشريعية والاقتصادية والاجتماعية؟!

أليس في تجاهل المشكلات التي تعاني منها البشرية – ما كان منها متعلقاً مباشرة بالمسلمين، وما لم يكن له بهم علاقة مباشرة– بعداً عن مقاصد الحج التي قدم الله تعالى فيها شهود المنافع على ذكر اسمـــه، ونكوصاً عن أداء المهمة التي أناطها الله تعالى بالمسلمين إذ جعلهم أمة وسطاً وأشهد عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ليكونوا بدورهم شهداء على الناس؟!

وهل تضاءلت المعاني الكبيرة للحج، والمثل العليا التي ينطوي عليها، والرموز السامية الرفيعة الـــتي يحفل بها، لتقتصر على خبر عابر لا يحرك في المشهد الدولي ساكناً، ولا يبلِّغ رسالة الإسلام جـــاهلاً، ولا يصحح من ضلالات الإعلام العالمي خطأً، ولا يحقق للإسلام والمسلمين في المحافل الدولية حضوراً؟!

وتتوالى مواسم الحج عاماً بعد عام، وتنفتح الثقافات الإنسانية على بعضها إثر ثـــورة الاتصـــالات العارمة التي أخذت تغمر العالم بالمعلومات، وتضعنا أحداث سبتمبر ٢٠٠١ على تماسٍّ مباشر مع هـــذه الثقافات.. فيكبر السؤال:

ألم يأنِ أن يكون لنا منبر نبلغ منه رسالتنا ونوضح قضيتنا، ونصحح المفاهيم المغلوطة عن ديننا؟!

وهل غير الحج الأكبر يصلح لأن يكون هذا المنبر؟!

يملؤني الشعور بأن أوان تبليغ رسالة الإسلام إلى العالم أجمع – من أسلم نفسه منه لله ومن لم يسلم – قد آن، وأن جبل الرحمة إن شاء الله سيكون المنبر، وأن موضوعها السنوي المتخذ– بشيء من التطوير– سيكون الرسالة.

لا شك أن تحقيق هذا الحلم الطموح تعترضه صعوبات جمة.

فالناس المخاطبون، تختلف ألسنتهم وألوانهم وأمزجتهم ودياناتهم، ومستوياتهم العلمية، واهتماماتهم الثقافية، وخصائصهم البيئية..

لكن هذا الاختلاف لم يمنع الإسلام من أن يتوجه بخطابه إليهم جميعاً، وعدَّ هذا الاختلاف آية من آيات الله، ونعمة منَّ الله تعالى بها على عباده؛ وسيلة للتعارف والحوار والتفاعل والتكامل بين الأمم والثقافات، وطريقاً إجبارياً لنمو الأفكار وارتقائها تلبية لنهم الإنسان إلى الاستزادة من العلم والمعرفة، وبحثه الحثيث عن الحقيقة التي لا تنقدح بوارقها إلا بتعدد الأفكار واحتكاك بعضها ببعض.

ولعل قدرة الخطاب القرآني الفذ على مخاطبة هذا التنوع الكبير أحد أسرار إعجازه، وسموه وارتفاعه فوق خصوصيات المكان والزمان والجنس واللسان.

وبذلك يجد المسلم نفسه ممتلكاً لأكثر أنواع الخطاب قدرة على النفاذ إلى قلوب جميع الناس، واستنهاض فِطَرهم السليمة، للقيام بسعي إنساني مشترك من أجل إقامة العدل ورفع الظلم وتحرير الإنسان من ربقة شهواته وأثرته، وذلك لباب واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أناطه الله تعالى بخير أمة أخرجت للناس.

و الحاج عندما يعود إلى بلده، بعد أدائه لفريضة الحج، ونجاحه في أعمال دورته التدريبية المكثفة، يمنحه مجتمعه لقب (الحاج)، وهو درجة اجتماعية رفيعة، ترتب عليه التزامات أخلاقية كبيرة، فقد أصبح بعدها مسلماً ملتزماً مؤهلاً لا يليق به أن يغش أو يكذب أو يخلف الوعد أو يرتكب أياً من الموبقات بذريعة الجهل.

ومن تقاليد هذه الدرجة أن تُمنح للحاج فور عودته في استقبال حافل تنصب له الزينات وتضاءُ الأنوار، وتقدم الهدايا، وينصت الناس فيه إلى الحاج يحدثهم عن مشاهداته ومشاعره وما استفاده من دروس الحج، ويطلبون منه الدعاء لهم بالمغفرة والهداية.

فإذا عرفنا أن كل حاج يستقبل وسطياً مئة زائر في الأيام الأولى التالية لعودته، فضلاً عمن يلتقيهم طوال العام، وأن حجم الحجيج البالغ حالياً حوالي المليونين مرشحاً للزيادة أضعافاً، باعتبار أن الحج

فريضة على كل مسلم مستطيع من المسلمين الذين جاوز عددهم المليار، يؤديها مرة في العمر على الأقل، بمعنى أن المستطيعين من هذا المليار، المرشح للزيادة بوتيرة عالية، عليهم أن يؤدوا هذه الفريضة خلال فترة استطاعتهم ولتكن خمسين سنة.. عرفنا أي منبر نرتقيه، وأي جمهور نخاطب، وأي عدد يمكن أن نبلغه رسالة الحج بالبلاغ المباشر الحي عن طريق الحجاج، وبالبلاغ المنقول في الأثير عبر أجهزة الإعلام المتنوعة..

وعرفنا بعد ذلك أي تفريط بحق هذا المنبر نرتكبه في عدم توظيفه التوظيف الأمثل والأجدى ..

وعرفنا كذلك أي مسؤولية نتحملها جراء تقصيرنا في تبليغ رسالة الله تعالى إلى الإنسانية الظمأى إليها، التي لم تكن في يوم من الأيام أحوج إليها من أيامها هذه التي تغرق فيها في بحر الأنانية المادية الشهوانية وضلالاتها، التي ابتعدت بها عن طريق الله، وأبطأت بها عن وتيرة الكدح الإنساني المرسوم للإنسان في سعيه للتحرر من الفساد وسفك الدماء {يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ *} [الانشقاق: ٦/٨٤] .

ونتحملها كذلك كتماناً للشهادة التي ائتُمنا عليها {وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ} [البقرة: ٢٨٣/٢].

ونتحملها صمتاً مطبقاً إزاء الحملات الإعلامية المغرضة التي يشنها أعداء الإسلام عليه، يلبسون بها الحق بالباطل، ويستهدفون تشويه تعاليمه السمحة، وطمس حقائقه الناصعة؛ {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ *} [الصف: ٨/٦١] . و {لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ} [النساء: ١٤٨/٤] .

* * *

وبهذا المستوى من الشعور المشترك بمسؤولية الرسالة وأداء الأمانة أرى أنه لم يعد مقبولاً من الحاج أن يتحدث لزواره عن الخدمات العظيمة، وأصناف الطعام والشراب التي قدمت له مجاناً على صعيد عرفة، ولا عن متاعب السفر التي واجهها، ولا عن زحام الطواف ورجم الجمرات، ولا عن المدة التي قضاها في السيارة للنفر من عرفات إلى مزدلفة ومغامراته للتغلب عليها، ومحاولاته السبق في الوصول إلى الحرم لطواف الإفاضة والتحلل من الإحرام.

وأرى أنه قد آن الأوان ليعود الحاج إلى أهله وزواره برسالةٍ تلهب مشاعرهم الإيمانية، وتؤجج شوقهم لأداء هذه الفريضة الكبرى، وتحقق مقصود الشارع منها. كما آن الأوان لأن يؤدي الحج سنوياً رسالته الإنسانية السامية، توحيداً لكلمة المسلمين، ورصاً لصفوفهم، وبحثاً في مشكلاتهم، وإنهاضاً لهممهم، من جهة، ومنبراً يقولون منه سنوياً كلمتهم الإنسانية الجامعة إلى العالم، فهم أولى بهذه الكلمة من بابا الفاتيكان.

إن التحول بهذا النسك العظيم من بعده الفردي الديني المحدود إلى بعده الإنساني التاريخي غير المحدود؛ يتطلب مشروعاً تتوافر على إعداده هيئات علمية واجتماعية كبيرة ومتخصصة، وإنني بتواضع أطرح نواة هذا المشروع فيما يلي من النقاط:

١- يختار موضوع الحج السنوي، من القيم الإنسانية التي يتوجه بها الخطاب القرآني إلى الناس كافة، مما تجده ذا صلة وثيقة بأحداث العالم الجارية، وتشعر بحاجة الإنسانية للإصغاء إليه والتنبه له، وما أكثر هذه القيم التي يزخر بها الكتاب والسنة؛كالعدل والحرية والمساواة والسلم والأمن والمودة والتسامح وحسن الجوار ورفع الظلم ومساعدة الضعيف وإطعام المسكين وعدم الإكراه في الدين والوفاء بالعهود وحرمة الدم والمال والوسطية والرشد والشورى، وما لا ينفد من كلمات الله في كتابه المبين الذي لا تنقضي عجائبه ولا يَخْلَق من كثرة الرد، ولا يكف عن تزويد البشرية بكل الحلول لمشكلاتها المستجدة والمتجددة إلى قيام الساعة.

٢- ويستنبط منه شعاراً رشيقاً يسهل على الناس حفظه.

٣- ويستقي منه عناوين لأبحاث وندوات ومقالات وقصائد تستنفر لها العلماء والأدباء والمفكرين والشعراء.

٤- وينظم لها مسابقات، وتخصص لها جوائز لأفضل بحث، وأفضل قصيدة، وأفضل عمل فني مبتكر يجسد الشعار المختار ويوضح فكرته.

٥- ويعمَّم الموضوع والشعار على وسائل الإعلام وخطباء المساجد والملحقين الثقافيين، ليكون شغلهم الشاغل ومحور نشاطهم الثقافي والدعوي،يولِّدون منه الأفكار وينمونها ويعمقونها.

٦- ويُكتب بذلك إلى التجار والصناع تشجعهم على استخدامه وإبرازه على بضائعهم التي يعود بها الحجاج هدايا إلى بلدانهم..

٧- ثم يُصاغ منه في كل عام رسالة توجه بلغات مختلفة إلى العالم كله عبر وسائل الإعلام، باسم مؤتمر الحج الأكبر، تتضمن الموضوع المختار والشعار المنبثق عنه وتطبيقاته المرجوّة، وحرصَ المسلمين على المشاركة في معالجة الهموم الإنسانية، والإسهام في بناء الحضارة العالمية على تقوى من الله ورضوان؛ مما يمكن أن يشكل لهم حضوراً فعالاً في المنتدى الدولي، ويدفع بالإسلام إلى مرتبته التي يستحقها في المجال الدعوي.

٨- كما يصاغُ من الموضوع السنوي ذاتِه رسالة إلى الحجاج، تتسم بالبساطة حتى يفهمها أدناهم، وبالعمق حتى تستقر في ضمائرهم، وباليسر حتى يمكنهم تبليغها وتمثلها وتطبيقها. توجهها إليهم بكل لغاتهم؛ مسموعةً ومطبوعةً، وبكل الوسائل التي تجعل منها رسالة يعودون بها إلى أهليهم، يُطلب

منهم تبليغها، تأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، «فرب مبلَّغ أوعى من سامع»، وتكـــون مـــادة لحديثهم مع مستقبليهم متى عادوا إلى بلدانهم. وأغلب ظني أنها ستصبح حدثاً يؤرخ به الحـــاج حجـــه، فيقول: قد أديت حجي عام المساواة أو عام العدل أو عام الوفاء.

٩- وتشكِّل دائرة للمتابعة، تؤجج الموضوع المختار في الداخل والخارج بكـــل الوســـائل، لتجعله حياً طوال العام، حاضراً في ذاكرة العالم. أسوة بالموضوعات التي تتبناها سنوياً هيئة الأمم المتحدة فتجعل منها عاماً للمرأة وعاماً للطفل وعاماً للسياحة، وأعواماً أخرَ لأغراض شتى.

* * *

وأخيراً، إذا قدر لاقتراحي هذا أن يلقى القبول ولو في حدوده الدنيا، وأن يأخذ طريقـــه إلى حيّـــز التطبيق ولو بالتدريج، على هيئة فسيلة تُتَعهَّد وتُنَمّى، أو فلزة تشذَّب وتهذَّب وتُنقىّ وتصقل وتُعدَّل، فإني أطمع أن تكون سنة يكتب الله تعالى لي ولمن يسهم بتطويرها أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

وإن تكن الأخرى، فإني أسأل الله تعالى أن يقيض للمسلمين من يبتكر لهم خططاً أجـــدى وأكثـــر قابلية للتطبيق، تخرجهم من حالة العجز والكلالة والعيِّ التي يعانونها، وتبوئهم مكانتهم التي أعـــدهم الله تعالى لها ليكونوا {خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ٣/١١٠] .

وتعيد لمؤتمر الحج الأكبر هيبته العالمية، وجدارته بأن تُلقى من فوق منبره الفريد في العـــالم؛ كلمـــة الملايين من المؤتمرين.

وللحج مقاصد..
لو نجتهد لتلبيتها!!

أم القرى (مؤتمر النهضة الإسلامية الأول)

الحج: المؤتمر السنوي العام للمسلمين

الحج في القرآن

الرسول في حجة الوداع

الحج في الفقه الإسلامي

الحج في الخطاب الإسلامي والواقع الراهن

(تابونج حاجي) التجربة الماليزية الرائدة

أم القرى

(مؤتمر النهضة الإسلامية الأول)

مؤتمر ثقافي متخيل دعا له عبد الرحمن الكواكبي؛ لفيفاً من المفكرين والمصلحين من أنحاء العالم الإسلامي، واختار له أم القرى مكاناً لانعقاده، لِما رأى من محوريتها ومكانتها المقدسة في نفوس المسلمين؛ تهوي إليها أفئدتهم، وحدد له يوم الإثنين الخامس عشر من ذي القعدة ١٣١٦هـ الموافق للثامن والعشرين من آذار (مارس) ١٨٩٩م موعداً لبدء انعقاده، مغتنماً بذلك فرصة موسم الحج الذي يأتي إليه الناس كل عام من كل فج عميق، ليكونوا شهوداً عليه، وحملةً لرسالته.

وقد وضع الكواكبي لمؤتمره جدول أعمال غني، بعد رحلة طويلة قام بها لاستطلاع آراء المسلمين، والتعرف على مشكلاتهم وسر تخلفهم. فانعقدت لمناقشتها اثنتا عشرة جلسة، خرجت في جلستها الختامية المنعقدة يوم الإثنين ٢٩ ذي القعدة بتوصيات مهمة، وبتأسيس (جمعية تعليم الموحدين)، وإقرار قانونها الأساسي، وتشكيل اللجان الموكلة بمتابعة تنفيذ القرارات حتى تحقيق النهضة الإسلامية العلمية والأخلاقية الشاملة.

.. وأن يمضي قرن ونيف على هذا المؤتمر المتخيل، الذي استعرض مشكلات المسلمين وسبل إنهاضهم من كبوتهم، من دون أن ينعقد هذا المؤتمر على أرض الواقع، فيتعطل الجانب الأبرز والأهم من مقاصد الحج، وهو ما أشار إليه الله تعالى وقدَّمه {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ *} [الحج: ٢٨/٢٢] ؛ مسألة تستدعي التأمل والنظر.

الحج:

المؤتمر السنوي العام للمسلمين

"إن الوحدة الإسلامية قائمة على ركنين لا ثالث لهما: الحج إلى بيت الله الحرام، والخلافة".

وقد غلب على الكثيرين من رجال الغرب وهمٌ، فما برحوا يخالون الخلافة العامل الأكبر الذي بسببه يتشارك المسلمون ميولاً وعواطف مؤدية إلى الاعتزاز بالوحدة، وازدياد منعتها وامتدادها وانتشارها.

إن هذا لمن الوهم الصرف؛ فالحج فرض مقدس، وما زالت مكة حتى اليوم تستقبل الحجاج الوافدين إليها من كل بقاع العالم الإسلامي، وهناك أمام الكعبة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة والأجناس. ويكفي أن نقول: إن الحج هو المؤتمر الإسلامي السنوي العام، الذي فيه تتباحث الوفود الإسلامية القادمة من أقطار المعمور الإسلامي كافة في مصالح المسلمين، وتقوم بوضع الخطط للذَّبِّ عن حياض المسلمين ونشر الدعوة. وفيه كانت قلوب قادتهم تتقد غيرة على الإسلام والمسلمين".

[لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي
ترجمة عجاج نويهض ص٢٨٩]

.. وأن يمضي القرن ذاته على جرس الإنذار الذي قرعه لوثروب ستودارد؛ لافتاً نظر الغرب المتربِّص بالمسلمين الدوائر إلى أهمية الركن الثقافي للحج، الذي يراه أخطر من الركن السياسي (الخلافة)، من دون أن يخطو المسلمون خطوة واحدة في طريق تحقيق وحدتهم ونهوضهم من كبوتهم المزمنة.. أمر يستدعي أكثر من نظر وأكثر من سؤال؛ بحثاً عن العوائق والموانع.

تُرى لِمَ لَمْ يعد الحج قادراً على أداء الدور الذي نبه إليه لوثروب، وعدَّه العامل الأشد تأثيراً في مشاعر الوحدة بين المسلمين، وفي رص صفوفهم في مواجهة المخاطر المحدقة بهم؟!

وكيف تم إفراغ الحج من مضامينه، وعزله عن مقاصده، واختزاله في مجرد نسك شكلي، وفريضة فردية يؤديها المسلم من دون أي شعور بالانتماء إلى الجماعة، وبمعزلٍ عن أي أغراض كالتي ألمح إليها لوثروب، فأصبح مجرد موسم، يرضي به المسلم أشواقه الروحية، ويدخره رصيداً له عند الله تعالى في الآخرة، إذ الصلاة في بيت الله الحرام تعدل مئة ألف صلاة في غيره. أو إنه أصبح مجرد سياحة دينية يستمتع بها الحاج، وينهل من بركاتها. أو حتى مجرد حمام لغسيل الذنوب، يرجع منها الحاج متحرراً من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ربما ليبدأ بعده دورة جديدة من ارتكاب الذنوب والآثام، طالما أن حمام غسيل الذنوب جاهز لاستقباله كل عام؟!

فإن كان أمر الحج قد آل إلى هذا المصير، فهل هذا هو حقاً يمثل لباب مقاصد الحج التي شرعه الله لها؟!

هل كان عبد الرحمن الكواكبي، في دعوته إلى مؤتمره المتخيل في الحج حالماً؟!

وهل كان لوثروب وأشباهه من المستشرقين الغربيين المرعوبين من أثر الحج في توحيد شمل المسلمين وجمع كلمتهم، واهمين؟!

وإذا كان جوابنا على ذلك كله نفياً؛ فلا الكواكبي كان واهماً، ولا الغربيون المرعوبون من الحج كانوا واهمين، ولا الحج كان مجرد عبادة فردية ينحصر ثوابها بالإنسان في الآخرة، ولا تستفيد منها جماعة المسلمين شيئاً في الدنيا. فمن الذي أخرج الحج عن مقاصده العليا؟!

أهو التدبير الخارجي وخطة الغرب المحكمة؟!

أم هو الوهن الذي أصاب المسلمين فباتوا يتمسكون بالشكل ويغفلون عن المضمون؟

أم هما العاملان الخارجي والداخلي معاً قد تضافرا على إفراغ الحج من مضامينه، وعزله عن مقاصده؟؟

يبدو أن الاحتمال الأخير هو الأوفر حظاً في تفسير جميع ما يحيق بالمسلمين من ويلات، فلا بــدَّ– عندما يفقد أي مجتمع فاعليته فيصبح منفعلاً بالأحداث بدلاً من أن يكون فاعلاً فيها – أن يكون هــو الطرف المهزوم في مواجهته مع مجتمع مذخور بالفعالية؛ يضع أهدافه التي يروم تحقيقها على المدى البعيد، ويرسم خططه التنفيذية لبلوغها على مراحل، لا يبدأ مرحلة جديدة ما لم يتأكد من نجاحــه في إنجــاز سابقتها..

وفي ضوء هذا الاحتمال الأخير يمكن تفسير سائر الظواهر التي غالباً ما يكون المســلمون الطــرف الخاسر فيها؛ من إلغاء الخلافة، إلى إفراغ الحج من مضامينه، إلى تدمير الأسرة إلى هجنة اللسان، إلى تمزيق الكيان، وإذكاء مشاعر النقص والدونية، وقبول الغزو والاحتلال والاستيطان..

فعزو ذلك كله إلى العامل الخارجي وحده، وهو هنا العدو المستعمر المتربِّص يجعلنا أسرى نظريــة المؤامرة؛ نعلق كل مآسينا وهزائمنا على مشجب الاستعمار؛ نبرئ بذلك ذواتنا، ونعفي أنفسنا من كـــل مسؤولية، مقتنعين أن لا حول لنا ولا حيلة َ إزاء ما نتعرض له من عدوان، سوى أن نلعـــن الاســتعمار والشيطان، ونستعين عليهما بالله تعالى، نكل إليه مهمة كفايتنا شر الأعداء. لكن الله تعالى سرعان ما يرد المسؤولية إلينا {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِــكُمْ إِنَّ} [آل عمران: ٣/١٦٥] .

وردُّ ذلك كله إلى العامل الذاتي وحده، يوقعنا في مغبة جلد الذات، وما يترتب عليها مـــن اليـــأس والإحباط وسيطرة مشاعر النقص والعجز والكلالة، وتكتيف اليدين وطأطأة الرأس لتلقي المزيـــد مـــن الضربات. بينما إدراك العاملين الخارجي والداخلي معاً، سوف يؤهلنا لخوض المعركة، على بصيرة وبينة، تتيح لنا مواجهة الخطط المدبرة بخطط مدبرة أخرى لمواجهتها وإحباطها أو تفادي آثارها.

إن علينا أن ندرك تماماً أن ردود الأفعال الآنية العشوائية لا يمكن أن تقف في مواجهة الخطط المدبرة المحكمة، بل إن هذه الخطط سوف تتجاهلها، واثقة من أنها زوبعة في فنجان ما تلبث أن تهدأ، لتواصـــل الخطة التنفيذ على أرض الواقع في خطوات مدروسة.

وذلك هو ما أطلق عليه مالك بن نبي مصطلح القابلية للاستعمار التي تنجم عن انعـــدام الفاعليـــة المساوية لانعدام الوزن، فالفعل ينبغي أن يقابله الفعل المدروس، وليس رد الفعل الغريزي الآني.

الحج في القرآن

{} [البقرة: ٢/١٢٥–١٢٨]

{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَــنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ *} [البقرة: ٢/١٥٨] .

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *} [البقرة: ٢/١٨٩] .

{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ *} {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ *} [آل عمران: ٣/٩٦-٩٧] .

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ *} {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *} {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *} [المائدة: ٥/٩٥-٩٧] .

{وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *} [التوبة: ٩/٣] .

{وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ *} {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ *} {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ *} {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ *} {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ *} {ذَلِكَ ومَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ *} {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ *} {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ *} {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *} {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *} {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ *} [الحج: ٢٢/٢٧-٣٧] .

هكذا يرسم لنا القرآن الكريم ملامح هذه الشعيرة الكبرى من شعائر المسلمين: يذكر لنا معالمهـا: الصفا والمروة، وعرفات،والمشعر الحرام، وبكة (أول بيت وضع للناس) ومقام إبـراهيم (الملاذ الآمـن للخائفين)، والكعبة (البيت الحرام) والبيت العتيق والفج العميق (الذي يأتي الناس منه رجالاً وعلى كـل ضامر).

ويذكر لنا مواقيتها: يوم الحج الأكبر،والشهر الحرام، والأهلة التي هي المواقيت للناس والحج، وتخيير الحاج بين التعجل في يومين أو التأخر بعدهما.

ويذكر لنا أنواعها: حج وعمرة وتمتع، ومراحلَ إقامتها: من طواف للقـدوم والسـعي والإفاضـة والوداع، وإحرام يترك له كل مظاهر الترف والتميز، مجتنباً كل رفث وفسوق وجدال وقول زور، ممتنعاً عن كل إساءة لإنسان أو حيوان، موفراً لهما الأمن والطمأنينة فلا صيد ولا نزاع مع الإحرام. وتحلـل؛ يطرح به الحاج تَفَثَه، ويحلق شعره، ويوفي نذره، ونحر يسوق له الهدي والقلائد، فيأكـل منـها القـانع (المتعفف) والمعتر (السائل) وكل بائس فقير.. كما يذكر لنا ما يترتب على الحاج فعله في حالة الإحصار وطروء ما يمنعه من إتمام شعيرة الحج.

ويؤكد لنا في السياق التزام المسلم بالعهد ما التزم المعاهد، ومنح حق الجوار لمن يستجير حتى يسمع كلام الله ثم يبلغ مأمنه.

يجعل من هذه الشعيرة فرض عين على كل مستطيع من الناس مؤكداً لنا أن المستفيد منها هم الناس و {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَـا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ *} [الحج: ٣٧/٢٢] .

ويرسم لنا مقاصدها العليا {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ *} [الحج: ٢٨/٢٢] .

لم يبين لنا أنواع المنافع، بل تركها مطلقة لا يحدها إلا أن تكون مشروعة ضمن ما أحل الله تعـالى للناس، يستثمرون فيه لقاءهم العظيم في كل ما يعود عليهم بالنفع فرادى وجماعات؛ من تبادل تجـاري وثقافي وفكري، وتداولٍ في أمر دينهم ودنياهم، وشؤون نهضتهم وأمنهم، وخلاصهم، وسـبل إبـلاغ رسالتهم الإنسانية إلى العالم، وإسهامهم في التقدم البشري، على الوجه الذي رسمه الله تعـالى {يَاأَيُّهَـا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ *} [الانشقاق: ٦/٨٤] .

لم يذكر لنا القرآن الكريم في كل آيات الحج شيئاً عن ثواب الحاج في الدار الآخرة فذلك معلومٌ من الدين بالضرورة، وقد تكفلت السنة المطهرة ببيانه، و لم يرد ذكر الآخرة في كل هذه الآيات إلا في معرض تقسيم الناس إلى صنفين {} [البقرة: ٢/٢٠٠-٢٠٢] .

هكذا أعطى الله تعالى الحظ الوافر من الثواب، لمن قصد من الحج خيري الدنيا والآخـــرة، ووعـــد بسرعة إيفاء هؤلاء نصيبهم مما كسبوا فهو سريع الحساب.. وهكذا يتأكد لنا أن الحاج الذي يتوخى في حجه النفع له وللمسلمين، ويبذل جهده لتحقيق المقاصد العليا للحج؛ فيستشعر انتماءه لجماعة المسلمين؛ يرفق بهم ويؤثرهم؛ يتعارفون في الحج ويتعاونون على حل مشكلاتهم وتوحيد كلمتهم، ورص صفوفهم، والنهوض من كبوتهم.. سيكون صاحب الحظ الأوفى من ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. وأن اقتصار الحاج على طلب ثواب الآخرة لنفسه وحده، متجاهلاً البعد الجماعي الدنيوي لهذه الشعيرة الجماعيـــة، سوف يُضعف من ثوابه الأخروي، إن لم يذهب بأكثره، لما يسببه هذا الشعور الفردي من أنانية وأثـــرة تجعله يدافع الناس، ويزاحمهم على المناسك، ويسابقهم عليها، وهو ما نراه من تزاحم في الطواف واستئثار باستلام الحجر، وتدافع في رمي الجمار؛ يُرتكب به من الأخطاء ما يحسب على الحاج ويذهب بثوابه على قدر ما يسيء به إلى إخوانه الحجاج.

الرسول في حجة الوداع

من خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم

في حجة الوداع

روى الإمام مسلم بسنده عن جابر رضي الله عنه قال:

"مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة تسع سنين لم يحجّ، ثم أذّن في الناس في العاشرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجّ، فقدم المدينة بشر كثير؛ كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله صلى الله عليه وسلم ويعمل مثل عمله.

وألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم عرفة خطبة جامعة في جموع المسلمين الذين احتشدوا حوله في الموقف، جاء فيها:

«أيها الناس : اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس ، إنّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.

ألا وإن كل شي من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دمٍ أضعُ من دمائنا دمُ ابن ربيعة ابن الحارث. وربا الجاهلية موضوع وأول رباً أضع ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم..

اتقوا الله في النساء ، فإنكم إنما أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله. إن لكم عليهن حقاً ولهن عليكم حقاً: لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه.. ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله وسنة رسوله..

أيها الناس ، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسه منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغتُ؟ وستلقون ربكم فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعلّ بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بأصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد (ثلاث مرات).

بأبي أنت وأمي يا سيدي يا رسول الله!!

كأني بك، قد أدركت أن مهمتك قد أوشكت أن تنتهي على وجه هذه الأرض، وأن لقاءك مــع الجيل الذي أبلغته الرسالة لقاءُ مودع، فأردتَ أولاً أن تستوثق لنفسك شهادةً تلقى بها وجه الله؛ بأنك قد أديت الأمانة وبلَّغت الرسالة، ونصحتَ الأمة، وجاهدتَ في الله حق جهاده..

وأردت ثانياً أن تحمِّل هذا الجيل الذي احتشد بين يديك في عرفات أمانة رسالتك الإنسانية الخاتمة، وتأخذ عليهم الميثاق ليكونوا شهداء على الناس بعد أن كان الرسول عليهم شهيداً.

كأني بك، يا سيدي يا رسول الله! كنت تنظر بعين المشفق الوجل إلى كل من كان وراء الحجــيج على وجه البسيطة ممن لم يبلغهم نداؤك بعد، وترنو ببصرك إلى كل من سيأتي من ذريــاتهم في الأجيــال الإنسانية التالية المتعاقبة إلى أن يرث الله الأرض، فأنت النبي الخاتم ولا نبي بعدك، وما أُرسلتَ إلا لتكون رحمةً للعالمين؛ كل العالمين.

كان وجَلُك واضحاً من تكرارك السؤال: «اللهم هل بلغت؟!» وكان إشفاقك واستيثاقك أكثــر وضوحاً عندما ألقيتَ بعبء الرسالة الذي صدقت في حمله ما حييتَ حتى أثقل كاهلك، ألقيتــه علــى عواتق سامعيك ومَن وراءهم، ومن سيأتي بعدهم إلى يوم القيامة.. لتبلّغ الرسالة مداها، فيحملها جيل إلى جيل، وتحمل رايتها أمة إلى أمة، فما إن تتراخ يد أمة أو جيل عنها، حتى ينهد لها جيل في أمة أكثر شباباً وحيوية {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨/٤٧] .

«ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه».

ما أروعها من خطة تتعاظم فيها الرسالة، وتتوسع الرقعة، ويكبر العدد، وتتنامى الأفكار، ويطمــئن بها قلبك يا سيدي يا رسول الله!!

ولئن حاق بأمتك ما تنبأتَ به من تداعي الأمم عليها تداعيَ الأكلة إلى قصعتها، ومن أنهم يومئــذ كثير، ولكنهم غثاء كغثاء السيل، فإن البذرة التي أودعتها ضمائرهم – مهما طال عليها الأمد – فهــي كالطاقة الكامنة، ما تلبث متى تهيأت لها الأرض والمناخ الملائم، أن تتفجر كالينبوع، وأن تسري كالنور يبدد ظلام الليل البهيم.

وإن الإنسانية اليوم، وقد أرهقتها حضارة الغرب بمنطلقاتها المادية التي بلغت بها ذروة التكنولوجيا، وانحدر بها خواؤها الروحي – في الوقت نفسه– إلى حضيض الانحطــاط الأخلاقــي واخــتلال القــيم والموازين، لترنو بأبصارها إلى رسالتك السامية تعيد إليها توازنها وطمأنينتها.

وإن ثقتك بأجيال الإنسانية القادمة بعدك، والتي توقعت لها أن تكون أوعى لرسالتك من سامعيك المعاصرين لك، سوف تقدح زناد أفكارهم ليستأنفوا دورهم الحضاري الرائد، ويرفدوا الإنسانية بأفضل

الحلول لمشكلاتها على هدْي منهجك الرباني، وسنن الله التاريخية التي لا تخطئ في تطور المجتمعات وتداول الحضارات بين الأمم.

لم يكن لديك في خطبتك الوداعية وقت لتبين للناس فضائل الحج، وما ادخره الله تعالى لعباده من الثواب عنه، فرحت تلخص لهم القيم العليا التي تشتمل عليها رسالتك الخاتمة التي بها سينقطع وحي السماء، تأتمنهم عليها وتستخلفهم لحملها إلى الأجيال الإنسانية القادمة كافة؛ كي تواصل طريقها وكدحها إلى الله على هداها.

هكذا أصغت الدنيا كلها إليه صلى الله عليه وسلم يقول: «أيها الناس : اسمعوا قولي! فإني لا أدري، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً».

«أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.. ألا وإن كل شي من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع.. دماء الجاهلية موضوعة.. وربا الجاهلية موضوع».

«أيها الناس : إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً.. اتقوا الله في النساء..».

ومضى يتابع خطابه: أيها الناس!! أيها الناس!! ينادي الناس.. كل الناس يريد بذلك أن يستوثق لرسالته أنه قد بلغها، وللأمانة أنه قد أداها فأخرج مسؤوليتها من عنقه ليضعها في أعناق الأجيال الإنسانية القادمة..

فإذا بهذه الأجيال كلها تصرخ بصوت واحد - كلما قرأت قوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [سبأ: ٣٤/٢٨] .

تشهد أنك قد بلغت الرسالة ونصحت الأمة وجاهدت في الله حق جهاده، وستظل تؤدي هذه الشهادة كلما مرت بقبرك إلى يوم القيامة، كي تطيب بذلك نفسك وتطمئن إلى أن أمتك ما زالت على العهد..

الحج في الفقه الإسلامي

تُفْرد كتب الفقه جميعها باباً خاصاً للحج والعمرة بوصفهما فرضاً على كل مسلم مستطيع، ويأتي ترتيبه في العبادات بعد الصلاة والزكاة والصوم لأن الصلاة عماد الدين، وتتكرر خمس مرات في اليوم، ثم تليها الزكاة التي تقرن بالصلاة في أكثر المواضع في القرآن الكريم لتكرار تطبيقاتها في المجتمع على مدار العام، يليهما الصوم لتكرره كل عام، أما الحج وعمرته فلكونه لا يجب على المسلم إلا مرة واحدة في العمر.

وهي غالباً ما تبدأ بالتعريف بهما، وبيان فضلهما وثوابهما بالمقارنة مع أنواع العبادات الأخرى، ثم بيان فرضيتهما، وما إذا كانت هذه الفرضية على الفور أم التراخي، فبيان أحكامهما: ما كان منها ركناً أو واجباً أو شرطاً أو سنة أو مباحاً، فالتعريف بمواقيت الحج الزمانية والمكانية، فوصف أعمالهما بالترتيب، بدءاً بالإحرام بهما وما يترتب عليه من الممنوعات والمحظورات، وانتهاءً بالتحلل والخروج من هذه العبادة العظيمة، وما بين ذلك من طوافٍ للقدوم والإفاضة والوداع، وسعي،ووقوف بعرفة، ثم بالمزدلفة، ورمي للجمار، ومبيت بمنى. ثم أحكام المخالفات وما يترتب عليها من جزاءات الفدية أو الصيام أو الدم، وأحكام الهدي والذبائح.

وغالباً ما تكون الأحكام الشرعية متبوعة ببيان الآداب التي يحسن أن يتحلى بها الحاج.

وعلى الرغم من أن معظم كتب الفقه القديمة، قد تناولت الأحكام المترتبة على الحاج بصفته الفردية، وأحكام الحج بوصفه عبادةً ينال المسلم ثواب أدائها في الآخرة، فقد أتت بعض كتب الفقه الحديثة على ذكر فوائد الحج، مقسمة إياها إلى فوائد شخصية تحظى بالنصيب الأوفى من الاهتمام والأهمية، من تكفير الذنوب، ودخول الجنة، وإجابة الدعاء، وتصفية النفوس، والتدرب على الصبر واحتمال متاعب السفر، والالتزام بطاعة الله تعالى وتنفيذ أوامره، والتذلل لله تعالى والتقشف عند الإحرام. وإلى فوائد أخرى جماعية؛ " من تعارف بين المسلمين على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأوطانهم، وإمكان تبادل المنافع الاقتصادية الحرة فيما بينهم، والمذاكرة في شؤون المسلمين العامة، وتعاونهم صفاً واحداً أمام أعدائهم، وغير ذلك مما يدخل في معنى قوله تعالى: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} [الحج: ٢٢/٢٨] . ويشعر الحج بقوة الرابطة الأخوية مع المؤمنين في جميع أنحاء الأرض.. وأنهم حقاً متساوون؛ لا فضل لعربي على أعجمي،ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. ويساعد الحج على نشر الدعوة الإسلامية ودعم نشاط الدعاة في أنحاء المعمورة، على النحو الذي بدأ به النبي صلى الله عليه وسلم نشر دعوته بلقاء وفود الحجيج كل عام"[(٥)].

غير أن ذلك يأتي في هذه الكتب عرضاً، لا يتبعه- على أهميته وكونه نهج الرسول صلى الله عليه وسلم في نشر دعوته – أي تفصيل، ولا يوزع على الأحكام ليبث الروح فيها، إذ يربطها بالحكم والمقاصد، فتبقى شكلاً بلا مضمون، وجسداً بلا روح، خلافاً لمنهج القرآن الكريم الذي ما إن يذكر الإيمان حتى يقرنه بالعمل الصالح، ويذكر الصلاة مقرونة بالزكاة غالباً، ويبين لنا ثمرتها {إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: ٢٩/٤٥] فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له، كما يبين لنا ثمرة الزكاة {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة: ٩/١٠٣] .

ولم يأل الرسول صلى الله عليه وسلم جهداً في بيان ثمرات العبادات: «أرأيتم لو أن نهـراً ببـاب أحدكم، يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنـه شـيء؛ قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا» [متفق عليه- رياض الصالحين ١٠٤١-ط٢: دار الفكر] .

"عندما نقرأ الكتب التي توزع على الحجاج، نجدها أقرب ما تكون إلى الدليل السـياحي، الـذي يصف الطرق، وقد غابت منها روح المناسك؛ فالحاج يرمي جمرات العقبة دون أن يعلم أن هذه العقبة قد انعقد فيها [مؤتمر] تأسيس الدولة الإسلامية، ويصلي في الروضة، لأن الثوابَ فيها سبعون ضعفاً، يعـني صفقة تجارية، أما أنها الجامعة التي خرج منها النور، وغيرت مجرى التاريخ والحضارة، فهذا مالا نحسـه. وحينما نطوف حول الكعبة لا نشعر أنها أول بيت وضع للناس في الأرض، وأصبح قبلة هذه الأمة الخاتمة، تجسيداً لوحدة الدين.. فروح العبادة أصبح غير موجود.. ولعل هذا ما دفع أبا حامد الغـزالي إلى رفـع شعار ثورة (إحياء علوم الدين)، لأنها ماتت وجفت روحها، وهذا الإحياء هو ما نحتاج إليه"[(٦)].

الحج في الخطاب الإسلامي
والواقع الراهن

ويكاد الحج في الخطاب الإسلامي الراهن، لا يعدو بيان الأحكام كما وردت في كتب الفقه، وبيان فرضيته وثوابه الفردي في الدار الآخرة، من دون أن يكون لذلك أي علاقة بما ينبغي أن يعود بـه علـى الحاج في الدنيا من أثر أو تغير في سلوكه ومعاملاته وعلاقاته مع الآخرين، سواءً أثناء أدائه لأعمال الحج، أو عندما يعود إلى أهله قافلاً من حجه، على الرغم مما تقرر لدى العلماء من أن من وجد نفسه وخلقـه بعد أداء العبادة خيراً مما كان عليه قبلها، فإن ذلك من علامات قبولها.

وفيما عدا القلة من العلماء الأخيار، الذين تعد صحبتهم في الحج مَعيناً يفيض بالنور والعلم والتقوى والصلاح على من حولهم، من خلال القدوة الحسنة، والتأسي بأعمالهم، والْتماس العِلْم والخلق لـديهم، والتأثر الذاتي بصدقهم وإخلاصهم.. فقد تحولت مهمة معظم أمراء أفواج الحج إلى مهمة إرشـاد ديـني سياحي،فيما أطلق عليه اسم (السياحة الدينية).

ونظراً للصعوبات الناجمة عن تضخم عدد الحجاج، بسبب التقـدم الكـبير في وسـائط النقـل والمواصلات، فقد توجهت الاهتمامات المشتركة بين الحجاج وقادة الأفواج إلى التنافس حول ما يمكن أن يقدمه كل منهم من تسهيلات للحاج في إقامته وتحركاته وطعامه وشرابه حتى أخذت رحـلات الحـج تقاس بعدد النجوم، فهذه رحلة ذات نجمة أو نجمتين، تكاليفها متيسرة لـذوي الـدخل والإمكانـات المحدودة، وتلك رحلة تصل إلى مستوى خمس نجوم، بما توفره من إقامـات فـاخرة وموائـد مفتوحـة

ومرشدين لامعين، وتكاليفها ترتفع إلى ما أصبح يطلق عليه مصطلح (الأرقام الفلكية) التي لا يقدر عليها إلا القليل من الميسورين.

وهكذا تحول حديث الحاج لزواره عندما يؤوب من حجه إليهم عن هذه التسهيلات والامتيـــازات التي وُفرت له، وعن الصعوبات التي واجهها الحجاج الذين لم يتيسر لهم ما تيسر له، وعن الساعات التي قضاها بعضهم ضمن سيارات النقل من عرفات إلى المزدلفة، وعن.. وعن.. مما يذهب بكل مقاصد الحج العليا، وكل ما يترتب على تحقيقها من آثار إيجابية تعود على الفرد وعلى المجتمع وجماعة المسلمين.

وهذا كله، فضلاً عن اختزال الإرشاد الديني في الجانب الفقهي من أحكام الحج، وفيمـــا يترتـــب للحاج من حسناتٍ تُدَّخر له في آخرته، بمعزلٍ عما يُعجل له ولإخوانه المسلمين من منافع تعـــود عليـــه وعليهم بالبركات والخير العميم، استجابة لدعائهم {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِـــرَةِ حَسَـــنَةً} [البقرة: ٢/٢٠١] .

ونظراً لعدم مواكبة الأحكام الفقهية لمستجدات العصور وما طرأ على بيئة الحج من تغيرات كبرى في العَدد والعُدد والوسائط وأنماط المعيشة، وما نجم عن هذه المتغيرات من مشكلات تكون أحياناً كارثية، فقد ظل الخطاب الديني غالباً في عصر الطيارة كما كان في عصر الجمل، وبسبب عجز معظم المرشـــدين عن المقايسة والمقاربة، فقد ظلت فتاواهم تنـــزع إلى التشدد، والتقيد بحرفية النصوص، على الرغم مـــن توكيد القرآن الكريم على رفع الحرج {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٢٢/٧٨] ، وعلى الرغم مما رواه البخاري عن ابن عباس "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل أيام منى، فيقـــول: «لا حَرَج، لا حرج!» وفي رواية عن عبد الله بن عمرو: "ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء قُدِّم ولا أُخِّر إلا قال: «افعل ولا حرج»".

وهذا النـــزوع إلى التشدد انتقل بدوره من المرشدين إلى العوام يطلقون به أحكاماً من عند أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان، فقد أصغيت في الطائرة – وأنا في طريقي إلى حجٍّ – إلى امرأة محرمة بالحج، تنهى زميلتها عن فتح الشاشة الصغيرة التي أمامها، وتأمرها بسترها، لأنها كالمرآة؛ تعمل عملها، والمرآة في الحج تفسد الإحرام!!

لست هنا لأدعو إلى اجتهادٍ منفلت لمواجهة المستجدات، بل إنني أتطلع إلى اجتهاد جماعي يقوم به علماء المسلمين من خلال مؤتمراتهم الفقهية، ومراكزهم لأبحاث الفقه الإسلامي، يطرحون فيه المشكلات الطارئة على بساط البحث؛ يحللونها ويضعون لها الحلول الناجعة في ضوء ثوابت الشـــرع، وفي طليعتـــها قاعدة رفع الحرج، ومنع الضرر، وأولوية درء المفاسد على جلب المصالح، ودوران المعلول مع العلة، وفي ضوء المقاصد العليا للشريعة، واستثمار تقنيات العصر لأجل تذليل كل الصعاب التي تحول دون تحقيقها..

وإن لدينا من تجربتنا الفقهية الغنية ما يؤهلنا للاجتهاد في كل المستجدات الطارئة، وإن فقهنا الذي اتسع في مسألة المبيت بمنى للحكم ونقيضه، لقادر على استيعاب مشكلاتنا الجديدة؛ كمواقيت الإحرام للقادمين بالطائرة، وممنوعات الإحرام وتطبيقاتها المستجدة، وسفر المرأة بدون محرم؛ وأوقات التوجه إلى منى، ورمي الجمرات، وطواف الإفاضة، وما يسببه التقيد بأوقاتها – الواردة – من حرجٍ؛ كثيراً ما يفضي إلى التدافع والهلاك.

إن رحلة العمر لكل مسلم، لا يجوز اختزالها في أداء مناسك تحولت إلى طقوس لا روح فيها، فكل منسك من هذه المناسك يرمز إلى قيمة إنسانية عليا، توجه حياة الإنسان في خدمة الرسالة الخاتمة التي وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم في أعناق الأجيال الإنسانية المتعاقبة، وإن علينا أن نعي الرموز الكبرى التي تنطوي عليها هذه المناسك، لنحسن الاستفادة منها في حياتنا، ثم تبليغها إلى الإنسانية المتعبة..

وكل ذرة من الأرض المباركة حول البيت العتيق تحكي حدثاً تاريخياً بارزاً كان له الأثر الكبير في بناء الأمة الراشدة التي اضطلعت بحمل الرسالة، علينا أن نسلط الضوء عليها، لتدخل في وعي الحاج وتستقر في ضميره، يستلهمها في جهده لاستئناف المسيرة الحضارية لأمته.

إن لدينا من التقنيات الحديثة والإمكانات ما نستطيع به أن نذلل كل الصعاب، وما نحسن به عرض تاريخنا وقيمنا أحسن وأجزل ما يكون العرض، وأكثر جاذبية وأعمق أثراً، وإن الله سائلنا يوم القيامة عن تقصيرنا في توظيف هذه التقنيات والإمكانات في إعادة بناء الأمة الراشدة و تبليغ الرسالة وأداء الأمانة.

(تابونج حاجي)

التجربة الماليزية الرائدة

كل من عاد إلينا من حج أو عمرة، يتحدث عن الحجاج الماليزيين؛ نظامِهم، أخلاقِهم، أناقتِهم، لطفِهم، تجمعِهم زرافات، وحدة زيِّهم، حسنِ أدائهم للمناسك، تجنبِهم لإيذاء إخوانهم.. أنى لهم كل ذلك من دون سائر الحجاج؟! وكيف تأتى لهم ذلك؟!

(تابونغ حاجي)؛ ادخار الحاج، (مكمورة) الحاج، صندوق حفظ نقود الحاج.

ادخار عائلي على هدي الشريعة الإسلامية تعود فكرته إلى الاقتصادي الماليزي الشهير أنغو عزيز من جامعة الملايا، وتقوم على أساس إنشاء مؤسسة تهتم بادخار الحج لتوفير نفقاته، واستثمار المدخرات في الوقت نفسه.

وقد حظي المشروع بمباركة الإمام محمود شلتوت شيخ الأزهر خلال زيارته لماليزيا ١٩٦٢، وقد بلغ عدد المشاركين في الصندوق عام ٢٠٠٣ أربعة ملايين ونصف المليون، بإيداعات وصلت إلى ٢.٦

مليار دولار أميركي، وبنمو في معدل المودعين بنسبة ٢.٧ سنوياً، وهو أعلى من معدل زيادة عدد السكان البالغ ٢.٥% في السنة.

ويقدم الصندوق خدمات الإعاشة والفحص الصحي والنقل والرعاية والإرشاد الديني سنوياً للحجاج.

ويفتح الصندوق حساباً لكل مسلم ماليزي بحد أدنى للاشتراك الشهري يعادل ١٠ رينجت ماليزي للبالغين (يعادل ٢.٧٥$ أميركي تقريباً) و٢ رينجت للأطفال (تعادل نصف دولار أميركي تقريباً). وله مجلس استشاري يوجه أعماله ويراقبها لتظل متسقة مع الشريعة الإسلامية، ومحققة لمقاصدها.

ولديه عدد من الشركات والمؤسسات في الداخل والخارج، ويوزع أرباحاً تتراوح بين ٨-١٢% سنوياً بعد حسم الضرائب والزكاة، وقد وفر للحجاج خدمات جيدة بتكلفة زهيدة مقارنة بالدول المجاورة (٢٣٠٠$ مقابل ٣٢٠٠ في أندونيسيا و٥٣٠٠ في سنغافورة).

ويعزى نجاحه إلى السهولة والطمأنينة التي وفرها للمدخرين نتيجة التزامه أحكام الشريعة الإسلامية التي قامت على أساسها شبكة متكاملة من الأوعية الادخارية في ماليزيا مثل صندوق احتياطي الموظفين، وصندوق الأمن الاجتماعي، وصناديق الضمان الاجتماعي، والادخار الإسلامي.

إنه أنموذج للتنمية البشرية يحتذى، وتجربة إسلامية فريدة ورائدة. تستحق التأمل والمزيد من الدرس والاطلاع للاقتداء والتأسي..

إن فكرة تبسيط الادخار، وتسهيل إجراءاته، وجعِله في متناول كل إنسان، وإتاحتِه للطفل منذ ولادته وتثميرِه له، حتى يتسع لقضاء كل حاجاته الدينية والدنيوية، واستثماره في مشاريع إنتاجية تنموية، والتزامِ أحكام الشريعة الإسلامية في كل مراحله، وربطِ ذلك كله بشعيرة الحج، لهو إنجاز كبير يفسره لنا النجاح المنقطع النظير الذي حققه هذا المشروع، ويؤكد لنا في الوقت ذاته الطاقات الكامنة لدينا التي تنتظر من يكشف عنها ويفجرها.

فهل لمصارفنا الإسلامية، ورجالات الأعمال ونسائها لدينا، أن يعملوا فكرهم- مخلصين- في احتذاء خطوات هذه التجربة التي ما تزال فريدة، من دون أن يخالطها زيف ولا دخن، فيحققوا لشعوبهم نهوضاً يرضى عنه الله تعالى في الدنيا والآخرة ويدخلون به حلبة التقدم والحضارة الإنسانية من جديد بعد طول غياب!

الهوامش

[(١)] شِرَّة الشَّباب: حِرْصه ونشاطه (مختار الصِّحاح).

[(٢)] د. وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلتــه ج٣ ص١٣- ط١-١٩٨٤ دار الفكــر- دمشق.

[(٣)] جمال عطية: تجديد الفقه الإسلامي (سلسلة حوارات لقرن جديد) ص ٣١- دار الفكر ط١ -٢٠٠٠.